جامعة أبي بكر بلقايد
كلّية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم الآثار
المستوى: السنة الثانية ، السّداسي: الثاني
عنوان المقياس: تاريخ وآثار المغرب الإسلامي 2

السّنة الجامعية: 2024/2023
التّخصص: علم الآثار العام
أستاذ المقياس: بن حمو

الرّقم التّسلسلي للدّرس في المقرر الوزاري 02

عنوان الدّرس:

علاقة السياسة بالنشاط العمراني والعلمي في المغرب الإسلامي بعد الدولة الموحدية 1

علاقة السياسة بالنشاط العمراني والعلمي في المغرب الإسلامي بعد الدولة الموحدية:

إنما غرضي من هذا المبحث محاولة معرفة العلاقة الموجودة بين السياسة التي انتهجها حكام المغرب الإسلامي وأثرها على النظام العمراني والمعماري للمدن بشكل عام ، وعلى النشاط العلمي وتطوره بشكل خاص، وإنما ذكرت المدن هنا لأن العلماء إنما وجدوا في الحواضر والعواصم التي كان السلاطين يحاولون في كل مرة الاستلاء عليها ، حتى يستطيعوا تسييرها وفق ما يروه صالحا، وقد ذكرنا في المبحث السابق الخاص بالدويلات ما كان يقوم به كل حاكم من الحكام من محاولة القضاء على نظام الحكم فيها، وهذا ما يؤثر مباشرة على العلماء باعتبارهم من أهل الحل والعقد، وكان كثير من الحكام أنذاك يحيط نفسه بمجموعة من العلماء الذين يلجأ إلى رأيهم ومشورتهم في مهمات الأمور، وإذا حدث وأن سقطت دولة فإن هذا سيؤثر على هاته الطبقة من أهل العلم.

بالنسبة للجانب المعماري:

بما أن المغرب الإسلامي مر بشكل عام بنفس المراحل التاريخية، فسأحاول هنا التطرق لما حدث فيه، ونستطيع أن نقيس عليه جل الفترات التي تلتها ، فبالنسبة **للدولة الحفصية** أول هاته الدويلات استقلالا ففي عهد السلطان الحفصي أبي يحيى أبي بكر اتجه في حركته نحو المسيلة فهدم حصن بني عبد الواحد قربها سنة 732هـ/1331م، كما كانت لهذا السلطان بصمة معمارية بتونس، فقد بنت أخته مدرسة عنق الجمل وطلبت من أخيها أبي يحي أن يجعل قاضي الجماعة ابن عبد السلام مدرّسا بمدرستها، وكان مدرّسا بالمدرسة الشماعية، وفي عام 735هـ/1334م كمل بناء البرج الجديد برأس الطابية، وفي الفترة التي تلتها أصبحت تونس تحت حكم السلطان أبي الحسن المريني ولما دخلها شرع في بناء مدينة فوق سيجوم لجنوده التي لا تحصى وسماها المنصورة، ثم إن هذا الأخير هُزم أمام الحاجب ابن تافراجين سنة 749هـ/1348م بالقرب من القيروان، واتجه هذا الأخير إلى تونس ورماها بالمنجنيق، ثم استطاع أبو الحسن العودة إليها فأصلح سورها وأدار بها خندقا.

وفي سنة 755هـ/1355م بُني السور الخارجي في تونس المحيط بجميع أرباضها في عهد السلطان أبي إسحاق إبراهيم، وفي سنة 772هـ/1370م أخذ أبو العباس أحمد تونس من أبي البقاء خالد ولما دخلها انطلقت نار العيث في ديار أهل الدولة وفي مخلفاتهم فلم تكد تنطفئ، كما أن هذا السلطان أنشأ سبالة المدينة ببطحاء ابن مردوم وبنى البرج الكبير المعروف بقرطيل المحار الشرقي- وهو الرأس البارز في البحر- وجعله للحراسة في نفس السنة.

وفي سنة 796هـ/1393م تملك العرش الحفصي أبو فارس عبد العزيز فاستقامت الأمور بتونس وأحدث عدة منشآت كبنائه لزاوية باب البحر، وبناء السقاية خارج باب الجديد، وبنى الماجل الذي بمصلى العيدين، ومنها بناؤه للزاوية التي خارج باب أبي سعدون بحومة باردو، ومنها بناؤه للزاوية التي بحومة الداموس خارج باب علاوة المعروف بالشيخ الصالح سيدي فتح الله جعلها ملجأً للواردين من تلك الجهة، ومنها بناؤه محارس تحيط ثغور المسلمين كمحرس ءادار والحمامات وأبي الجعد ورفراف وغير ذلك، ومنها إقامة الخزانة بجوفي جامع الزيتونة وحبّس ما فيها وفي غيرها من الكتب في العلوم الشرعية والعربية واللغة والطب والحساب والتاريخ والأدبيات وغير ذلك، ومنها إحداث المارستان بتونس للضعفاء والغرباء وذوي العاهات من المسلمين، وفي سنة 801هـ/1398م حوّل الفندق الذي كان بباب البحر إلى زاوية لأنه بيعت فيه الخمور، وكذلك فعل بفندق قسنطينة.

وفي سنة 812هـ/1409م استطاع الأمير الحفصي أبو عبد الله من أخذ بجاية من أبي فارس بالإستعانة بالجند المريني، ثم إن السلطان استرجعها ولما دخلها انطلقت أيدي العيث في ديار أهلها فانتهبوها، وفي سنة 838هـ/1434م اعتلى أبو عبد الله محمد عرش السلطنة الحفصية وأمر ببناء المدرسة الكائنة بسوق الفلقة وبنى السبالة الكائنة بداخل باب أبي سعدون.

وفي سنة 839هـ/1435م حكم تونس الأمير أبو عمرو عثمان ومن أعماله بناء مدرسة وزاوية تحتها بالدار المعروفة بدار صولة جوار دار الشيخ الص الح سيدي محرز بن خلف والسقاية بإزائها، وأكمل المدرسة التي بدأها أخوه المنتصر بسوق الفلقة، ومنها بناؤه للميضآت الضخمة التي بدرب ابن عبد السلام جوفي جامع الزيتونة، ومنها بناؤه للسبالة شرقي صومعة جامع القصبة، ومنها بناؤه للمصاصة شرقي جامع الزيتونة يشرب منها العطاش من جعاب من نحاس يجذب الماء منها بالنفس، ومنها أمره بناء سبيل قرب المارستان ينتفع به من بجواره لقلة الماء هناك، ومنها بناؤه للسقاية بإزاء باب الجبيلة بين بابي برج الأونقي بتونس، ومنها إقامة خزانة للكتب، وبنى مقصورة سيدي محرز بن خلف شرقي جامع الزيتونة وحبس فيها من الكتب من غير ما فن من العلوم الشرعية واللغة والطب والتاريخ والحساب وغير ذلك، ومنها بناؤه لزاوية الفندق فوق غابة شريك قبلي جبل زغوان، وبنى أيضا الزاوية المعروفة بعين الزميت بين مدينة تونس وباجة، وزاوية أبي الحداد وزاوية المنهلة وزاوية قرلاطة بالمكان المعروف بين قفصة وتوزر، وزاوية بسكرة، وزاوية التومي وغير ذلك، وفي سنة 870هـ/1465م اتجه السلطان أبو عمرو عثمان الحفصي إلى تلمسان فحاصرها بجنده وبدؤوا في هدم أسوارها، ثم قدم عليه شيخها القاضي وكبار البلد فقبل منهم وجعل على تلمسان الأمير أبا زيان.

يمكن القول بأن الدولة الحفصية غلب عليها الإستقرار مع حكامها الذين استطاعوا إقراره كما أن طول مدتهم مكنتهم من تطوير المدينة على الصعيد المعماري.

المدرسة الشماعية

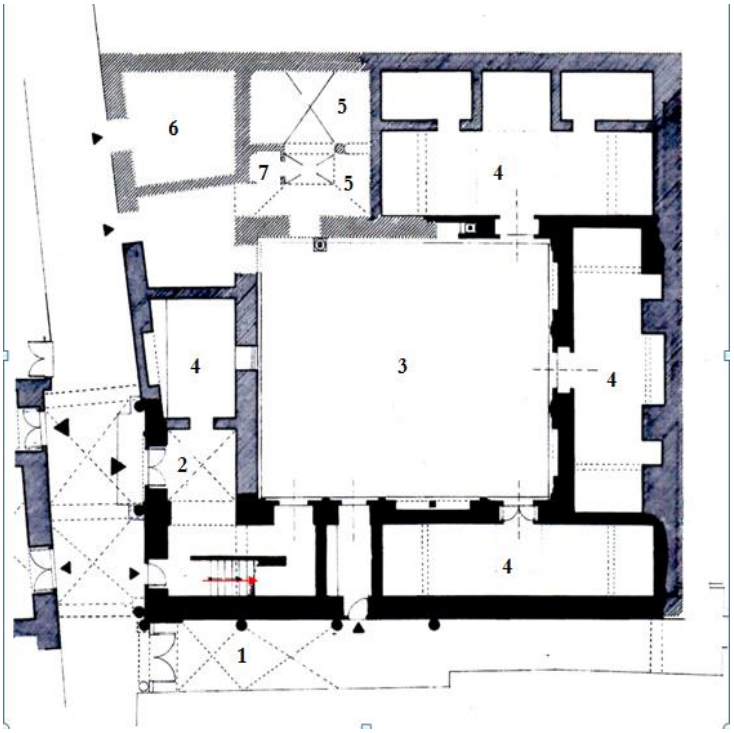

مسكن تونسي:

1- ممر مسقوف.

2- السقيفة.

3- الفناء (الصحن).

4- الغرف.

5- مطبخ.

6- مخزن.

7- مرحاض.

منظر داخلي لمنزل الحضري بتونس.

بالنسبة **للدولة الزيانية** فقد حاصر أبو يعقوب يوسف المريني تلمسان واختط قربها قصرا لسكناه واتخذ مسجدا وأدار عليها السور، وبنى الناس الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الأنيقة، ثم بنى على ذلك سورا سنه 702هـ/1302م وصيرها مصرا وكثر عمرانها واتسعت أسواقها، وأمر باتخاذ الحمامات والمارستان وابتنى مسجدا جامعا وشيّد له مئذنة رفيعة وسماها المنصورة، ثم خرّبها آل يغمراسن بعد ذلك بعد مهلك أبي يعقوب فطمسوا معالمها ونسفوها نسفا سنة 707هـ/1307م، وفي فترة الحصار هاته التي دامت من 698هـ/1298م إلى سنة 706هـ/1306م خرّب سكان مدينة تلمسان سقوف بيوتهم للوقود، وخلت المدينة من سكانها، وفُقد نحو من مائة وعشرين ألف نسمة، هلك بعضهم جوعا وفر بعضهم خارج المدينة، وقد أكل التلمسانيون الميتة والجيف والحشرات والزواحف وغيرها، ويقال بأنه بقي بتلمسان في عهد أبي زيان مائتي نسمة وألف جندي.

واستطاع أبو زيان السلطان الزياني بعد فك الحصار أن يمهد المناطق المجاورة، ثم نظر في إصلاح قصوره ورياضه ورمم ما تلثم من تلمسان، وكذلك فعل خلفه أبو حمو موسى الذي تفرغ للبناء والتشييد، وفي سنة 718هـ/1318م شيد أبو تاشفين –الحاكم الجديد للدولة– القصور واتخذ الرياض والبساتين، فاستكمل بذلك ما شرع فيه والده أبو حمو موسى، وبنى أبو تاشفين الحصون بالقرب من بجاية كحصن بكر وحصن تامزيزدكت، واختط بتيكلات على مرحلة منها بلدا سماها تامزيزدكت على اسم المعقل الذي لأَوَّلِهم بالجبل قبالة وجدة، ولما توجه أبو الحسن المريني بعد ذلك نحو المغرب الأدنى ووصل تيكلات المدينة التي بناها الزيانيون خرّب عمرانها وانتهب أقواتها فأصبحت أثرا بعد عين.

كما أن أبا الحسن المريني أعاد بناء المنصورة وقرَّبها من تلمسان حتى تقاربت كثيرا ورماها–أي تلمسان– بالمنجنيق واستمر الحصار سنتين، ثم اقتحمها سنة 737هـ/1336م ودخل المرينيون البلدة

فنهبوها وخربوا الكثير، وانطلقت الأيدي على المنازل نهبا واكتساحا، ولما دخل أبو الحسن بنى عدة منشآت بمدينة تلمسان كجامع القصبة والجامع الكبير وصومعته، وثرية جامع تلمسان، ومساجد عدة منها عند باب الحجاز وعند باب هنين وعند باب فاس، ومنها الجامع الذي أنشأ بمدينة هنين، والمساحة المزيدة في جامع الجزائر، وجامع ضريح أبي مدين، كما أنشأ مدرسة بالعباد.

وفي عهد أبي حمو موسى الثاني بنيت مدرسة بتلمسان، وفي حوالي سنة 785هـ/1383م إتجه أبو حمو إلى مدينة تازى وكانت تابعة للمرينيين فحاصرها سبعا وخرّب قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازورت، وفي عودته إلى تلمسان هدم قصر ونزمار المسمى مرادة في نواحي بطوية ، وفي سنة 786هـ/1384م اتجه أبو العباس المريني إلى تلمسان فدخلها وهدم أسوارها وخرّب الكثير من القصور الرائعة التي بناها أبو حمو موسى الثاني وابنه أبي تاشفين الثاني جزاءً لما فعله أبوحمو من التخريب.

وفي سنة 797هـ/1394م حكم تلمسان أبو زيان بن أبي حمو موسى الثاني، ولما استقر له الأمر تفرّغ للبناء وترميم ما أفسدته الحرب، وأظهر لها رونقا وجمالا وازدهارا، وجعل من بلاطه مكانا مفضلا للعلماء ورجال الفن والأدب والحرب، وكما قال التنسي:"أقام سوق المعارف على ساقها وأبدع في نظم مجالسها واتساقها وأوضح لأهل الأبصار والبصائر رسمها وأثبت في رسوم التخليد وسمها، فلاحت للعلم في أيامه شموس وارتاحت للإستغراق فيه نفوس بعد نفوس".

وبعد هذا استمر التدخل المريني في الشؤون الزيانية يولّون من يشاؤون ويعزلون من يشاؤون إلى حوالي سنة 804هـ/1403م أين حكم تلمسان أبو عبد الله محمد المعروف بابن خولة عرفت تلمسان خلال فترة حكمه استقرارا نسبيا شجع الحركة الفكرية والعلمية والفن، ثم تدخل الحفصيون في شأن تلمسان وعيّنوا عليها حكاما زيانيين تابعين لهم، إلى أن حكمها أبو العباس أحمد العاقل سنة 834هـ/1432م، والذي قام بعدة إصلاحات إدارية وبنى الدولة وأصلح الأوقاف وسخرها لفائدة المشاريع التربوية والدينية والاجتماعية، وطال حكم العاقل حوالي اثنين وثلاثين سنة ، ساد البلاد الرخاء الاقتصادي والتطور الفكري، وبنى المدرسة الجديدة بزاوية الشيخ الصالح الحسن بن مخلوف أبركان، كما بنى سور المشور، ثم احتدم الصراع بين آل الأسرة الزيانية وظهر الخطر المسيحي على السواحل وسقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس، كما ظهر الأتراك العثمانيون، وبقيت تلمسان في هذا الصراع إلى أن دخلت تحت راية الدولة العثمانية.

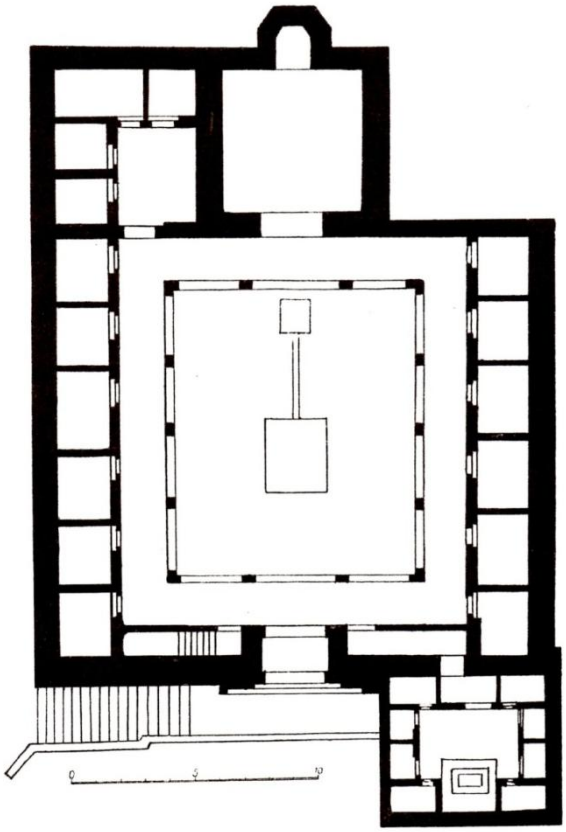

مخطط المدرسة الخلدونية بتلمسان، مع صور

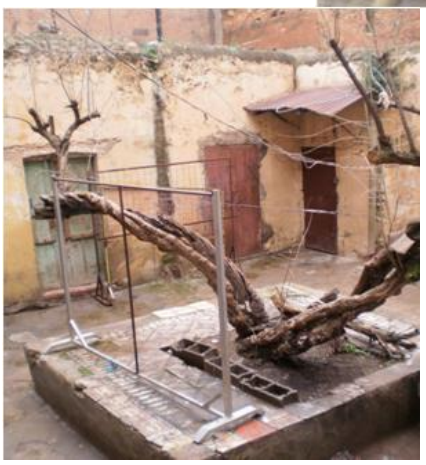

بعض صور فندق الرمانة

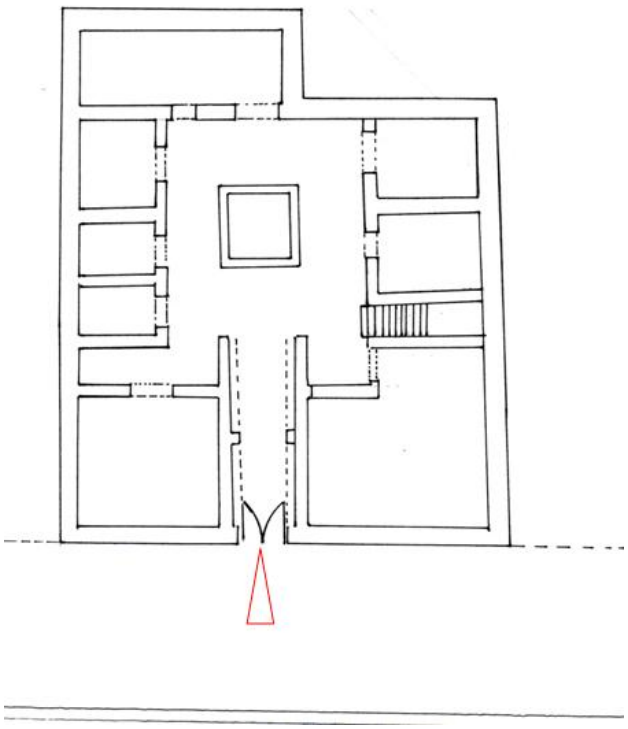

مخطط فندق الرمانة بتلمسان، عن عمر بلوط، بتصرف.

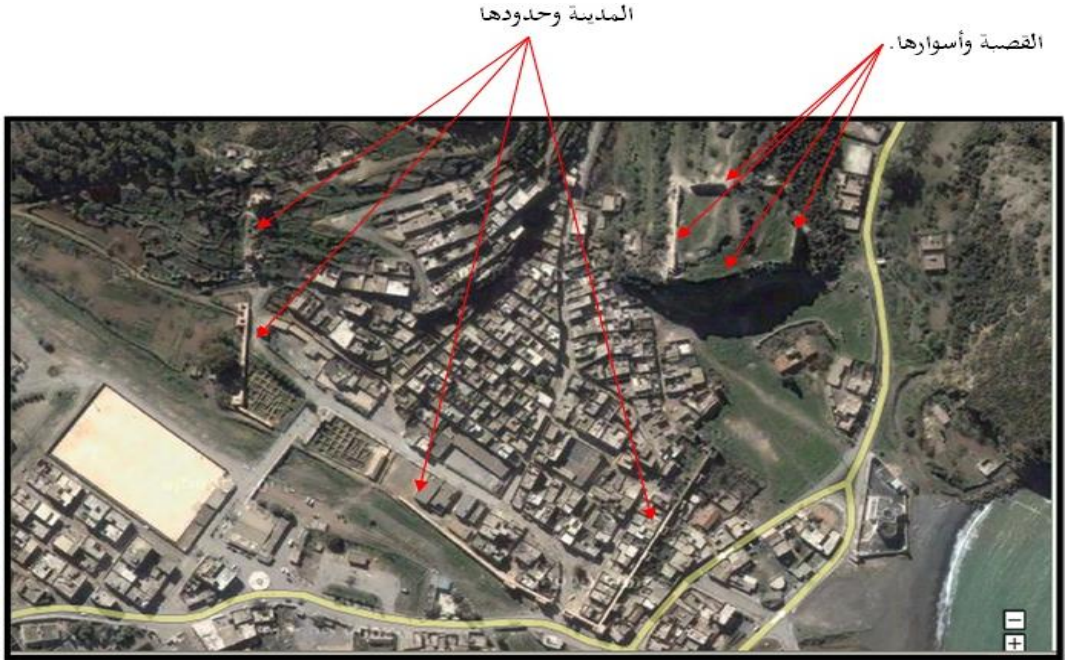

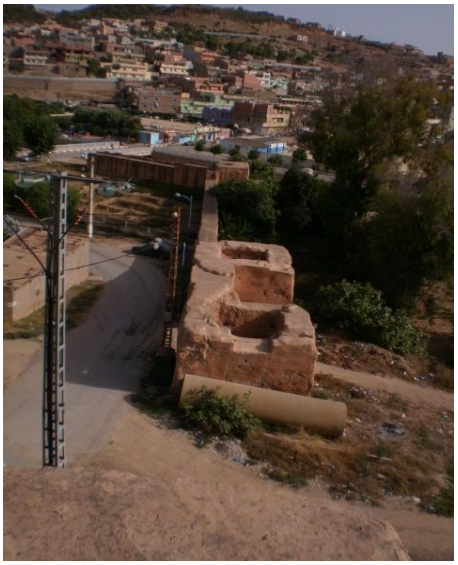

ملامح من التحصينات الدفاعية لمدينة هنين

بعض مراجع الدرس:

- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية.**

- أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن الشماع، **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية.**

- عبد الرحمن ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر.**

- عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني..**

- محمد بن عبد الله التنسي، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان** ، حققه وعلق عليه محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب والمكتبة الوطنية الجزائرية، 1405هـ/1985م.

- محمد بن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن** ، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا.